مُدن عربيّة : ١
القاهِرة

دزموند ستيوارت

للقاهرة ، وهي اكبر المدن الصحراوية ، لون الصحارى . وقد بناها ايمان صحراوي، ولا تزال طريق الصحراء افضل الطرق اليها : فهناك طريق سيارات من البحر المتوسط يمتد مسافة مائة وثلاثين ميلا في برية متموجة مغبرة اللون الى ان ينحدر خلف الاهرام الى واحة منخفضة ، تطل عليه قصبة رمادية وبنية . حتى الطائرات لا تتجنب اصطدام الحياة والموت هذا : فهي تبدأ في الهبوط على ممرات المطار فوق كثبان من الرمل .

بنيت القاهرة من الصحراء التي ترتبط بها. فقد تكونت المثلثات العجيبة التي شادها خوفو وخلفاؤه من ملايين من الصخور الرملية التي اخذت من مقالع جبل المقطم ثم حملها النهر ، في فيضاناته ، الى الغرب عبر الوادي ، فوق الموقع الحالي للمدينة . واستعملت هذه الصخور فيما بعد لبناء المساجد وقصور الحكام في العهود الاسلامية .

وقد عاد جانب كبير من المدينة الى صحراء الماضي . فاختفت القاعة الذهبية التي كان يراقب الخليفة المعزّ منها حفلات البلاط من وراء ستار مزركش بالذهب ، واختفت معها الاربعة آلاف غرفة التي تألف القصر منها ، وعظام العبيد الاغريق والسودانيين الذين كانوا يأتمرون باوامره . ولم يبق شيء من قاعة الزمرد ولا من الديوان العظيم . وعلى التلال التي بنيت الاهرام من حجارتها والتي منها تحيّي الشمس ابا الهول الغربي عند الفجر، ما زالت تقوم بقايا جوامع وكأنها احلام لم تكتمل في قصة قوطية.

والصحراء تغزو المدينة ، سواء منها جادات الاحياء الحديثة او ازقة الاحياء القديمة الملتوية ، وفي شهر ايار (مايو) تحمل الخماسين التي تهب من ليبيا ترابا دقيقا يتسلل من احكم النوافذ ويترك على النبات والمباني غبارا رماديا. ان الاهداب المصرية الطويلة سلاح ضد هذا الغبار ، وليست للزينة .

وتزداد حدة مباهج القاهرة ، شأنها في ذلك شأن مباهج الصحراء، بفضل هذا الاطار الصحراوي المغبر . وتبيع الاكشاك عصير المانجو او قصب السكر لترطيب العطش القاسي . وتلوّن الازهار الزوايا الكالحة. وحينما تغيب الشمس في مساء يوم حار من وراء فندق الهلتون تعبق الارصفة بأريج غريب ، هو رائحة زنبق ورائحة اقحوان معاً .

والصحارى ، كالبحار ، ليست مجرد فراغات . انها قوى تربط وتجمع . فمثلما ربط البحر مدن اليونان في عالم البحر المتوسط القديم ، جمعت الصحارى المناطق المتنائية في الشرق الاوسط . فقد جاء الرحالة والسياح الى المكان الذي تقوم القاهرة عليه منذ بدء التاريخ . فمع ان اسم القاهرة عربي ، كان موقعها شهيرا من قبل ان يغادر العرب شبه الجزيرة العربية بمدة طويلة . وكان الفراعنة قد بنوا في هذا الموقع الذي يتسع النيل فيه ويصبح الدلتا الشبيهة بالمروحة ، عاصمتهم ممفيس . (ولا يزال هرم سقارة المتدرج ، وهو أقدم صرح حجري في العالم، يشرف على مدافن ممفيس، وتمكن رؤيته من مباني القاهرة العالية) . وكانت مدينة الاموات الرئيسية للفراعنة على مرتفعات الجيزة ، التي يصلها المرء الآن في غضون اربعين دقيقة في باص رقم ٨ من ميدان التحرير . وكان في « منبع الشمس » ، (اي هليوبوليس حاليا) ، معهد علمي قديم درس فيه كل من هيرودوتس وافلاطون على ايدي كهنة مصريين . وفي هليوبوليس الحاضرة (واسمها الآن عين شمس ، وهي ترتبط بالمدينة بواسطة المترو) احدى جامعات القاهرة الاربع .

لم يأت ذوو النفوذ من الرحالة ببضائع ، بل بافكار دينية . فالقاهرة (و هي ، مثل مدن اخرى كثيرة ، احدث حلقة في سلسلة متعاقبة من اماكن السكن البشري) تمتلىء بادلة حسية ظاهرة على الاديان .

مع ان العبرانيين (الذين يسميهم القرآن بني اسرائيل) كانوا يقومون بصنع الآجر في الدلتا الشرقية ، فان القرون التي سبقت ميلاد المسيح شهدت مستعمرات يهودية قائمة على ضفتي النيل . وكان اكبرها قرب المصب الغربي للنهر ، في الاسكندرية . هناك بسط فيلو مذهبه التوحيدي بتعابير الفلسفة الهلينية . وقد تبنت الكنيسة نظريته في « اللوغوس »، اي الكلمة ، لتفسير التجسد . غير ان العائلة المقدسة ، لما هربت من فلسطين من غضب هيرودس ، انما جاءت الى المدينة الرومانية في موقع القاهرة ، « بابل المصرية » . ولا يزال الكهنة الاقباط يدلون السياح على سرداب رطب في كنيسة ابي سرجا نام فيه اللوغوس ومريم ويوسف . والى الغرب من الكنيسة كنيس يهودي فيه توراة ثمينة .

ولكن لا الكنائس المسيحية ولا اليهودية هي التي تسيطر على سماء القاهرة ؛ فهي ليست مدينة مسيحية ولا يهودية ، بل هي مدينة مسلمة ، ينظر المسلمون اليها بتقديس لا يقل كثيرا عن تقديسهم لمكة التي تتجه مساجد القاهرة نحوها او للمدينة حيث دفن الرسول . ومع ان الافق يحمل منذ ١٩٥٢ المزيد من ناطحات السحاب والانصبة السامقة، يظل الطابع الرئيسي للمنظر الداكن من فوق السطوح هو المآذن ، رمز الايمان الذي يعلن خمس مرات كل يوم من شرفات في اعلاها .

وللقاهرة، كمدينة صحراوية في افريقيا، نباتات تمتاز بها : ازهار تحتاج لتنمو في الشمال

الى بيوت زجاجية مدفأة ، واشجار تصبغ الارض القاحلة بالوان زاهية ، وشجر الكافور باوراقه الصغيرة ذات الحفيف ، وشجر الطلح الذي يناسبه الجفاف ، والجميز المصري ، والبلح الذي جاء في القرآن ان المسيح ولد تحته ، وشجر البنيان الفخم الذي تنمو من اغصانه الجرداء اشجار جديدة قاتمة اللون . وبما ان المطر لا ينزل الا في شهور قليلة كل سنة ، فان الاغبرار يغشو على الدوام خضرة القاهرة .

الصحراء والنهر

ومع هذا فان ما يجعل من هذه المدينة الصحراوية مدينة فريدة هو ، اكثر من بناياتها ومن نباتاتها ، النهر الذي يهبها الحياة . ان مدن الواحات الاخرى يحصرها العطش ويحدّها . اما صحراء القاهرة فان اطول انهار العالم القديم يخترقها ويقسمها الى قسمين ، حاملا معه هبات من الاطلسي عبر ادغال افريقيا وجبالها .

منذ ان توقف استيراد مياه فيشي اصبح على كل قاهري وكل زائر للقاهرة ان يشرب من ماء النيل ، النهر الذي كثرت حوله الكليشهات . فقد قيل عنه : «من شرب منه مرة شرب منه ثانية » ، وقيل عنه اصدق من ذلك : « من شرب منه كثيرا لم يعد يتحمل ان يفارقه » . وماؤه ، مهما كان موحلاً ، مبارك عند الفلاح المصري . والناس يتعلقون بهذا النهر ، ويجدون هجرانه مؤلما .

وليس هذا القول من قبيل المبالغة . فاذا انت تهت مسافة عشرة اميال الى الشرق او الى الغرب من هذا الشريط المائي ، فانك تموت عطشا — ان لم يسعفك بدوي او فريق يبحث عن بترول. فالمطر يبلغ حدا ادنى، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة مجهولة اخرى من بقاع كثيرة في صحراء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الاحمر عبر الصحراء الكبرى الى المحيط الاطلسي .

الا ان اصدق كليشيه عن النيل هي التي تتجسد في لونه . فهو يتلون بسمرة تميل الى الاخضرار ، مثل ثوب سهرة حريري لعجوز ارستقراطية : نيليّ اللون — الا حينما تجعله شمس الصباح المبكر كذيل الطاووس، او حينما يشع منه بريق المعادن في منتصف الليل.

كان النيل ، كالبوسفور ، في مطلع القرن التاسع عشر ، سجنا مرعبا تحت سطح الارض ، يرمى فيه العصاة ، عرسانا مقيدين لنهر غامض الاهواء الجنسية . لكن النيل فقد هذه الصفة المرعبة ، وهو الآن عامل تلطيف في مدينة كانت لتبدو قاسية لولاه.

وترى رجال القوارب السمر ينتظرون خارج السميراميس من يريد « فلوكة » من المصريين او الاجانب . ويأتي معظم هؤلاء من اسوان ، في اقصى الجنوب. ويطلبون ما يساوي خمسة شلنات لمشوار ساعة . وتسير على ممر متهدم ، وتبتعد فجأة عن الضوضاء

ودخان البترول . ويمتلىء الشراع الرث ولكن المدبّر بمهارة ، ويشق القارب (وشكله ازلي كالنيل) صفحة الماء وهو يمر بقرب مستشفى القصر العيني نحو كوبري الجامعة . وفي ايام الفرص والاعياد تقذف نافورة بنتها وسط النهر شركة كروبس متعهدي بناء الجسور مياها غزيرة ترتفع اعلى من الفنادق .

ويختلف النيل عن النهر العربي الكبير الآخر ، الدجلة ، الذي يعني اسمه باليونانية «النمر» . فدجلة العراق نهر عنيف مفترس ، يفيض في الوقت الغلط — في الربيع ، حينما لا حاجة للماء بعد — اما النيل فهو انسب مجرى مائي في العالم : مناسب للريّ وللمواصلات على السواء . وهو دائم التدفق في اتجاه الشمال ، فيحمل القوارب الى البحر المتوسط ، وفي الوقت نفسه تجعل الريح التي تهب عليه من البحر ذاته سفر العودة الى الجنوب سهلا بدون تموّر . واهم من ذلك ، فانه يفيض عندما تكون هناك حاجة لمياهه ، حينما يأخذ جفاف الصيف في تجفيف الحقول .

يحب اهل القاهرة عوامل التلطيف هذا في مدينتهم الصحراوية . فعلى ضفتيه تقوم افضل شقق السكن . ويحتل فندق شبرد الجديد ، الذي نُقل من موقعه القديم قرب الازبكية ، مكانه مع سميراميس وهلتون ، مطلا على النهر . وحيثما تقسم الجزيرة النيل تصطف الذهبيات العتيقة الساحرة في الفرع الغربي ، الاضيق ، منه . وفي القاهرة مائة وتسعون منها ، وسيئتها الرئيسية تعرضها للبرغش .

في القناطر ، الى الشمال من القاهرة ، يروّض النيل اخيرا . فيحصر سور كبير هناك الماء طيلة اشهر العطش الاربعة ، بواسطة ابراج على طراز ما تصفه روايات السير وولتر سكوت .

وترمز القناطر الى المركز الرئيسي للقاهرة في التاريخ . فان موقعها على رأس الدلتا يعطيها اشرافا سهلا على مصر العليا والسفلى معا . فان الذي يسيطر على المياه في بلد صحراوي يسيطر على البلد نفسه . والقاهرة مدينة بأهميتها لكونها تقوم على المكان الذي يتفرع النيل فيه الى عدة انهر ، وهي شرايين تمتد الى الشمال لتغذي فدادين الدلتا الخصبة . فليست القاهرة مدينة عظيمة فحسب : بل هي ايضا عاصمة عظيمة ، تحكم الامة بلا منازع لها ، لكن سكانها متنوعون ومتعددو الالوان .

مدينة متعددة الالوان

وقد كانت القاهرة متعددة الالوان منذ تأسيسها . فحتى في تلك القرون التي كانت دار الاسلام بمعزل فيها عن دار الحرب (اي العالم المسيحي) تدفقت على مصر جماعات كثيرة من بينها الصليبيون في ١١٦٣ . فالمدينة المتغيرة لم تكن تتغير في هذا الامر . فجاءها عبيد بيض من القوقاز (اصبحوا حكامها ، باسم المماليك) ، وعبيد سود من السودان ،

وتجار من جاوه والصين ، وعلماء واولياء من تونس والمغرب ، واكثر من هؤلاء كلهم ، فلاحون مصريون من الدلتا والوادي ، ممن اجتمع في عروقهم دم الفراعنة والليبيين والنوبيين والاغارقة والاحباش والصوماليين . وفي نزل المدينة وكلياتها تكوّن هذا المزيج القاهري الغريب منذ وقت طويل .

وعندما فتح نابليون مصر امام اوربا اشتدت تناقضات المدينة ومفارقاتها، واضيف الغرب الحديث الى الشرق الخالد — مع ان هذا الغرب لم يكن الغرب الاحسن او الاصدق دائما . فقد اضطر الفقر في جنوبي اوربا افواجا من المهاجرين الى النزوح الى مصر في القرن التاسع عشر . وبلغت الجماعات الاوربية هذه في مصر مئات الالوف . واضيف اليهم ايضا جمع من المشرقيين الذين اطلق المصريون عليهم اسم الشوام . وقد حقق هؤلاء الاغراب نجاحا كبيرا في مصر ، الا جسديا : فكأن الطبيعة عاقبتهم بيد بينما كافأتهم بالاخرى . فشحبت بشراتهم واصبحت اخف جاذبية من البشرات السمراء للسكان الذين عاشوا بينهم . الا ان مدخراتهم في المصارف كانت في حالة جيدة .

وجاء التمصير بعد ثورة ١٩٥٢ ، فتقلصت موجة الاغراب بسبب التشريعات وقوانين العزل والتأميم وتبدل الجو السياسي . كما ان الهجرة خفت بسبب ازدهار البلاد التي جاء النازحون اصلا منها . وهكذا ازدادت السمرة في القاهرة من بعد الثورة ، لكن قلت اناقتها ايضا . وكانت جماهير الشعب في اواخر عهد فاروق قد غرقت في فقر ازال كل ثقة وامل ولم يعد يحتمل . ولم يكن حريق القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ احتجاجا على الفقر فقط، بل كان ايضا احتجاجا على ترف فاضح وسط الفقر والفاقة. فان الاميرات الجميلات كن في تلك الايام العصيبة يتجولن في شوارع القاهرة الفخمة للتبضع وكان بعض المطاعم يقدم الحلزون والاجبان الفاخرة الباذخة الثمن المستوردة خصيصا من باريس . وفي الوقت نفسه كان مصريون كثيرون يعيشون على بضعة مليمات في النهار .

معالم الاناقة قليلة في القاهرة الجديدة . فالاهتمام ينصب على القضاء على بواعث اليأس .

ومع هذا فبالرغم من وجود حكومة تهدف الى مجتمع اكثر وحدة وتناسقا ، يظل اهل القاهرة مختلفين متنوعين . فالمدينة نفسها ، باحيائها وصفاتها وعاداتها ، تعكس الاجناس والالوان والعادات المختلفة التي يتألف الشعب منها .

« بلدي » هو النعت الذي يستعمله رسام الكاريكاتور في وصف ابناء المدينة الاصليين وسكان احيائها الشعبية . وهو يصف اسلوبهم التقليدي في الحياة ، او يصف الاماكن التي يقيمون فيها . ويبدو المصريون البلديون بجلابياتهم واصواتهم العالية غير منسجمين مع عاصمة تزداد عصرية باستمرار، بالنسبة الى الاجنبي الهيّاب. اما بالنسبة لمن يأخذ على عاتقه الاجتماع بهم في مقاهيهم فهم ملح المدينة : ديمقراطيون مرحون بسطاء وعلى الفطرة .

والكبار منهم ظرفاء ومتأدبون ايضا. وقد تكوّن النمط الاساسي لحياتهم في الاحياء القديمة من المدينة ، حيث تتراكم طبقة من الزمان فوق اخرى ، وحيث تقوم مساكن رخيصة فوق اطلال قصر ملكي او فوق مزبلة .

ويستحيل ان نبالغ في وصف نمو سكان اكبر مدن افريقيا هذه . ليس فقط لان القاهريين يتناسلون بكثرة ، بل لان القاهرة ، شأن العواصم الاخرى ، تمتص كالاسفنج مئات الآلاف من النازحين عن القرى . وقد ارتفع مستوى المعيشة فيها اسرع من ارتفاعه في البلاد عموما . ولذلك يحمل كل قطار قادم نحوها من الجنوب او الشمال سكانا جددا . وكان سكانها في العام ١٨٨٢ حوالي ٣٧٥ الفا ، تضاعفوا عشر مرات تقريبا في ١٩٦٤ . وسيربون على الاربعة ملايين عندما يكون قد مرّ عام واحد على صدور هذا المقال .

لم تعد القاهرة القديمة (المنطقة التي يصل اليها صوت مؤذني مساجد القلعة) اكبر تجمع للحياة التقليدية هذه . فقد كانت شبرا قرية بنى محمد علي فيها قصرا ريفيا . وكانت كتب السياحة الى العام ١٨٩٦ لا تزال تقترح السفر اليها لاؤلئك الذين يريدون ان يقوموا برحلة نصف نهارية لرؤية قنالات الريف المصري وجواميسه. اما الآن فحتى تشاهد الريف عليك ان تذهب في اتجاهات اخرى : غرباً الى الاهرام او الى الجنوب من حلوان . اما شبرا ذاتها فهي حي من القاهرة اكثر ازدحاما من ايست هام قرب لندن او هارلم في نيويورك . وتسود الطريقة البلدية في المعيشة المئات من الشوارع الجديدة . ولكن اذا كانت شبرا لم تعد ريفية ، فانها لا تزال تستحق الزيارة من اجل كنيسة القديسة تيريزا ، وهي من اروع المعابد اطلاقا . وقد جذب المعبد الصغير الذي بناه في الاصل كرملي انكليزي ايرلندي في العشرينات من هذا القرن ، جموعا متزايدة من المسلمين والمسيحيين على السواء. اماالكنيسة الجديدة الضخمة فأن الامهات المصريات يزرنها بلا انقطاع ، يتبركن باسناد اطفالهن او ملابسهن الى الصندوق الزجاجي الذي يستلقي فيه تمثال القديسة. وعلى جدران المدخل لوحات نذور في اكثر من دستة من اللغات ، واحدها من رئيس وزارة مسلم سابق في مصر.

والعباسية حيّ آخر اخذت المدينة القديمة تنطلق فيه من حدودها وتصل الى السهل الممتد الى هليوبوليس والمطار . وقد اصبح قصر حبيب سكاكيني الذي كان قصرا ريفيا ، وهو صرح قوطي واسع فخم ، يتوسط مساكن شعبية مزدحمة . وحتى في الشوارع الخلفية من هليوبوليس ، اي مصر الجديدة (او القاهرة الجديدة) ، اخذت طرق المعيشة القديمة تتطور ، وراحت تتقبل الترانزستور وآلات الغسيل الكهربائية . ويسمع صوت الراديوات عاليا في المقاهي ، ويلبس الناس ثياب النوم في الشوارع ، وتعمل اربعون الف عربة على ابطاء حركة السير ، ويتجادل رجال الشرطة بالبستهم السوداء (او البيضاء في الصيف) مع المشاة بصراخ يجعل المرء يتوقع ثورة ، — الى ان ينتهي ذلك كله الى ابتسامات وامارات

احترام ، ويصبح الغضب سلاما . في هذه الاماكن يتوالد الاطفال كالفراخ ، ولكنهم فراخ بدون آلة تفقيس: فهم بالرغم من صخبهم وعبثهم يخافون آباءهم ويوقرونهم. وكثيرون منهم اشقياء ، وبعضهم جانحون : لهؤلاء ، اذا تم القبض عليهم ، اصلاحيات — لكنهم رشيقون متملصون. الا ان الاحصاءات لا تدل على وجود انحراف لا هدف له هنا، صنو ذلك الانحراف الذي يظهر في المجتمعات المزدهرة عادة .

تستأهل احياء القاهرة البلدية الزيارة . انها بقايا حية « لالف ليلة وليلة » . فمع ان جانبا كبيرا من هذه القصة الرائعة تدور حوادثه في بغداد ، فان القاهرة هي المجتمع الذي تصفه القصة ، وطريقة الحياة التي تصورها لم تتبدل في نواحٍ كثيرة.

لكن معظم ابناء البلد في القاهرة ، عندما يتوافر لهم ان يشتروا ثيابا افرنجية فانهم يفعلون ذلك ويكيفون انفسهم معها حسب طريقة الحياة الافرنجية.

فالطبقة الوسطى هي العنصر الذي يسيطر على القاهرة الحديثة . من صفوفها قام بناة المدينة في شكلها الحاضر وصانعو اذواقها ومحققو ثورتها . وقد انبثقت الطبقة الوسطى مؤخرا عن الجماهير البلدية . فكانت قد انقضت سنوات كثيرة من القرن التاسع عشر قبل ان يسمح للمصريين العاديين بتملك الاراضي ، والبرجوازية انما نشأت عن تحطيم الاحتكار الملكي للارض . اما الآن فالحواجز الطبقية مطاطة والطبقة المتوسطة في نمو . والارقام تدلل على هذا النمو : فبينما يبلغ عدد الذين يملكون شهادة للسواقة في القاهرة سبعين الفا فقط ، يبلغ عدد موظفي الحكومة ومستخدميها (وهم ينتمون ، الى حد ما ، الى الطبقة الوسطى) ستمائة الف .

مهما يكن من امر ، فان آمال الطبقة الوسطى ومطامحها هي التي تقرر شكل المدينة الجديدة: فذوقها هو الذي يقرر ما يجب هدمه وما يجب بناؤه وما يجب ابقاؤه. وقد احتفلت الطبقة الوسطى بانتصارها على النظام القديم ببناء كورنيش النيل البالغ طوله خمسة وعشرون ميلا : فهذا المشروع الذي طال البحث فيه عشرات السنين تم تشييده في غضون اسابيع، وتمكن القاهريون لذا من ان يتمتعوا اليوم ، بمختلف طبقاتهم ، بما هو بالفعل رئة جديدة .

والطبقة الوسطى تستهويها الفخامة والعصرية والراحة . لهذا يعطي مبنى التلفزيون ، ذو الطبقات الثلاثين و ذو الفسيفساء الازرق ، صورة للحياة حسب طرق الطبقة الوسطى لاولئك الذين يملكون اجهزة التلفزيون او الذين يلتفون حول الاجهزة الموضوعة في الاماكن العامة . وهناك ثلاث قنوات كانت في العام الفائت (١٩٦٤) تقدم كل اسبوع ١٣٧ ساعة و ١٦ دقيقة من البرامج الترفيهية والتثقيفية .

ومن الطبقة الوسطى برج القاهرة في الجزيرة ، الذي تصفه المنشورات الحكومية بانه

ذروة الفن المعماري الاسلامي الجديد ، والذي يشبه في الواقع سلة مستطيلة سامقة العلو . وفي اعلاه مطعم يدور حول ذاته ويتحرك كقطار بطيء جدا ، يرفع رواده اعينهم عن الصحون ليروا المنظر وقد تبدل تماما : فالاهرام الآن من جهة الشوكة على المائدة ، حيث كانت القلعة على الاقل ، وهم يحتسون الحساء ، قد بدت وكأنها ثابتة .

والقاهرة مدينة تسامح وتساهل عظيمين. ومع انه قد يحصل احيانا اصطدام بين فئة واخرى ، الا انه ليس فيها تمييز عنصري . واذا كانت فيها ازقة تشبه هارلم ، فانها هارلم بدون عقد نفسية . واذا كان السودانيون يتجمعون في مقاهٍ خاصة ، فليس هذا لانهم معزولون بل لانهم هم يفضلون ذلك . وليست ثمة بلدة او قرية كبيرة في وادي النيل ليس لها مقهى خاص بها في القاهرة ، يجتمع فيه ابناؤها الساكنون خارجها في العاصمة — اقول ابناؤها ، لا بناتها : فان مقاهي القاهرة الستة آلاف لا تزال للرجال فقط .

مع مدينة الاحياء مدينة للاموات

تؤوي احدى الضواحي في طرف من اطراف المدينة اغلبية من فيها : الاموات .

فتمتد مدينة ، او ضاحية ، في قوس موازٍ للقاهرة التي يعيش فيها الاحياء ، ما بين شوارعها المزدحمة وجبل المقطم القاحل . انها المخطط الهندسي من الشوارع التي تراها اذا وقفت في جامع الجيوشي ، فوق القلعة والحصن الذي منه ضرب نابليون المدينة التي وقفت في وجهه . وهي ليست مقبرة ، مع ان القبور تشكل جزءاً منها . بل هي مدينة لها لون الاسود ، منخفضة ، ذات شوارع كسائر الشوارع ، وبيوت مرقمة ، كأن ساعي البريد سيحمل اليها البريد في اولى جولاته . ولكنه ان قرع الباب ولم يفتح له احد ودخل ، وجد ما يشابه بيتا عاديا : غرفتين متجاورتين ، يكللهما الغبار ، وفي كل منهما جسم مستطيل من الحجر او الجبس . تحت احداهما يرقد ذكور العائلة ، وتحت الاخرى الاناث — معزولات في الموت كما في الحياة . ويستلقي الاموات على بلاطات ، تغطيهم الاكفان ، لكنها بدون توابيت . ومما يستحق الزيارة قبور المماليك ، حكام القاهرة ستة قرون ؛ كذلك القبر الجامع لآل محمد علي ، المنمق على طراز القرن الماضي .

هذه الضاحية ردّ على اولئك الذين ينكرون الاستمرار ما بين مواطني ممفيس قبل اربعة آلاف سنة وسكان القاهرة المعاصرة . ان الرومان كانوا يحرقون موتاهم ؛ والاغارقة كانوا يدفنونهم خارج المدينة على جانب الطريق ؛ وكان الاسلام في مطلع عهده يؤثر القبور البسيطة التي يمكنك ان تزيل معالمها بيدك . اما القاهرة فليس لعاصمة اسلامية سواها مثل هذا النظام في الدفن الذي تتبعه ولا مثل ما يصحبه من شعائر . ففي كل يوم مهم من ايام السنة (كعيد الفطر والاعياد الاطول التي تقترن بالحج الى مكة) يخرج الناس في القاهرة الى مدن

الاموات هذه ، يحملون سلال الزاد ، متلهفين على زيارة افراد العائلة الذين لن يتاح لهم بعد ان يلبسوا ثياب العيد الجديدة ولا ان يخرجوا لشم النسيم . وهناك امران يختلفان اليوم عما كانا عليه في ايام الفراعنة ، الذين كانوا يقومون بالاجراءات نفسها في مواسمهم : فلا تحنيط للموتى ، والمقابر الآن على الضفة الشرقية من النهر ، حيث تبزغ الشمس . فباستثناء عهد اخناتون الهرطوقي كان المصريون القدماء يدفنون موتاهم (بعد تحنيطهم ، ببذخ او ببساطة ، حسب ظروف العائلة) على الضفة الغربية ، مملكة اوزيريس .

كان لصوص المقابر مشكلة عويصة للفراعنة . وكانت الاهرام ، وهي المقابر العميقة ، محاولات لاتقاء اللصوص . ولا يزال لصوص المقابر يزعجون القاهريين اليوم كما كانوا يزعجون القاهريين في الماضي . ويحرس الخفراء مدينة الاموات هذه ، ولهم ولعائلاتهم دكاكين صغيرة تبيع الشاي والدفاتر ، وبعض البيوت يقطنها سكان احياء . ولكن بالرغم من وجود الخفراء ، ومن وجود الغيلان التي تقول الخرافات انها تسكن في ظلمة المقابر ، يثقب معظم العائلات اكفان الاموات حتى لا يعود فيها ما يغري بالسرقة .

وما يميز القاهرة عن اية مدينة اخرى في افريقيا (او في آسيا من هذه الناحية) انها كانت منذ مطلع القرن الماضي عاصمة دولة حديثة الى حد ما . واذ اقول هذا فانا لا اقصد التملق : ففي « الدولة الحديثة » مزيج من السيئات الى جانب الحسنات . غير ان ما في القاهرة ، من ثلاثين محكمة فيها ستمائة وخمسون قاضيا ومستشارا ، وثلاثة سجون فيها ثمانية آلاف سجين ، وخمسة وستون مستشفى فيها ١٣٠٣٢ سريرا ، وما يزيد على الالف ومائة شرطي للسير ، لا يعكس كونها عاصمة ليس الا ، بل كونها عاصمة دولة على النمط الحديث . كما انها فريدة في نوعها كمثال على مجتمع شرقي يحتك بالغرب احتكاكا مستمرا ومثمرا ، لا تنافسها في ذلك اسطنبول (وهي ، لكونها في اوربا ، مدينة غربية منذ تأسيسها) : فمع ان احتكاكا مماثلا حصل في قسطنطينية القرن التاسع عشر ، كانت النتيجة انهزاما : ونقل اتاتورك عاصمته الى مدينة صغيرة في الاناضول . لكن لا يفكر احد بالتخلي عن القاهرة — الا في شهر آب (اوغسطس) عندما تصبح الاسكندرية «العاصمة الثانية» .

ان فن العمار الاسلامي الذي تتسم به القاهرة يجعلها مدينة فريدة ، — لا مجرد مدينة مهمة .

ربما كانت في المدن الاخرى ، منفردة ، عمائر اسلامية اكثر اتقانا من عمائر القاهرة (مع ان هذه مسألة فيها نظر) : فكل من شاهد الالوان البراقة في برصه يأخذه منها العجب ؛ وهواة الشكل المعماري المجرد يدهشون لجمال قصر الاخيضر للصيد او قصور

سامرا من القرن التاسع ؛ ولتاج محل المواجه للماء من المعجبين قدر ما له من مصورين . ولكن كلا من هذه الامكنة عبارة عن مبنى واحد او ، كما في حال برصه ، عن مبانٍ من عصر واحد . اما القاهرة فهي الوحيدة التي تكشف عن تطور مستمر ، قرنا بعد آخر ، من السذاجة الى البساطة الى التعقيد ، ومن التفتح الى الذبول ؛ فيجد الزائر بذا حضارة كاملة بانتظاره ، تكشف عن نفسها في الحجر والقرميد والخشب ، في اكثر من ثلاثة عشر قرنا . وقد كان من الممكن ان تنافس بغداد القاهرة ، لو لم يدمرها المغول بعد سنوات قليلة من اكمال بناء المستنصرية المتناسق جدا . لذا فاننا ان رمنا ان نتذوق الفن الاسلامي « الذي لم تفسده التفاصيل الآلية كما في الحمراء ، ولا التكلف في الاتقان كما في دلهي ، كان علينا ان ندرس مساجد القاهرة ومقابرها» ، كما قال ستانلي لين بول ، — كان علينا ان نعرّج طويلا على مسجد عمرو ، وعلى مسجد ابن طولون الذي تمكن مقارنته بالبارثينون ، وعلى باب زويلة او باب المتولي ، وعلى مسجد الحاكم ، ومسجد السلطان حسن وضريحه ، ومقابر المماليك في الارجاء الشرقية من المدينة .

ليالي القاهرة ابقى في الذاكرة من نهاراتها ، وهي اكثر دراماتيكية من ليالي اوربا بما لا يقاس . وبعض الفضل في ذلك للطقس : فدرجة الحرارة تنزل بشدة في الشتاء (حينما تبلغ حوالي الستين) وفي الصيف (حينما قد تربو احيانا على المائة) بمجرد ان تتوارى الشمس وراء الاهرام . ولان الهواء جاف جدا تبدو النجوم اكثر عددا واسطع نورا مما تبدو عليه في الاجواء الاكثر رطوبة . لكن ما هي مباهج الليل التي تقدمها القاهرة ، عندما يبدأ حرس المدينة المسائيون الالفان (وهم حرس متقدمون في السن ويحملون اسلحة قديمة) بحراسة الشوارع التي تتبدل في الليل من حال لحال ؟

في القاهرة ستة عشر مطعما على النيل ، بعضها في ذهبيات وبعضها في حدائق . وبما ان السماء لا تمطر الا وقتا قصيرا في السنة ، يمكن استعمال مطاعم الهواء الطلق هذه طول السنة ، مع ان الليالي قد تكون باردة في الشتاء .

ليست القاهرة المدينة التي يؤمها المترفون في الاكل الصعاب الارضاء . ومطاعمها ، وخاصة المطاعم في الفنادق العصرية ، تقدم الطعام الغربي المعهود ، وهو يتراوح بين جيد ومتوسط . ويحول منع استيراد الكماليات دون وجود الاجبان الاجنبية . لكن اللحم المصري جيد ، وخاصة لحم الغنم ، وسمك البحرين المتوسط والاحمر ممتاز عموما . ويقال ان نسبة الكبريت العالية في البحر الاحمر هي سبب ضخامة حجم الجمبري في السويس .

وتقدم المطاعم البلدية كافة الوان الطبخ الشرقي . واذا كانت باريس مركز الطبخ الاوربي ، فان اسطنبول هي مركز الطبخ لا في تركيا وحدها ، بل في سائر الاقطار التي كانت تشكل

الامبراطورية العثمانية، في اليونان وسوريا ولبنان ومصر. واني اضع الطعام المصري درجة اعلى من اليوناني ودرجة ادنى من اللبناني.

وماذا يفعل المرء بعد ان يأكل — وعادة القاهرة ان تعوّض المرء بالكمية عن اي نقص في النوعية ؟

بالنسبة للقاهريين العاديين ، ثمة عدة اجوبة . اذا كان المرء امرأة ، فانها تبقى في المنزل في العادة ، تخيط او تشاهد التلفزيون او تتحدث مع سواها من النساء. اما اذا كان رجلا، فانه يذهب الى مقهاه المفضل من بين الستة آلاف مقهى في المدينة. فيه الشاي هو الشراب، والتسلية هي الطاولة او التلفزيون او المسامرة . فمباهج القاهرة محصورة ، مع ان الشبان ينتمون الى نوادٍ رياضية او يرابطون على الارصفة خارج دور السينما .

وليلة الخميس هي « ليلة السينما » المختارة ، لان الجمعة يوم الراحة في القاهرة. والاختيار متاح بين اثنتين وتسعين دارا للسينما فيها . كتب دستويفسكي ، منذ وقت طويل ، وهو يصف مسرحية تعرض في سجن قيصري في سيبيريا : «ان المسلمين جميعا يحبون الفرجة ». وهي ملاحظة صحيحة . فما من مدينة فيها من هواة السينما المتحمسين قدر مـا في العواصم العربية ، والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة ذات الانتاج السينمائي الضخم : وقد بدأت ستوديوهاتهـا (وهي تقوم عند قناة قرب الاهرام) بالانتاج منذ العشرينات ، وزاد انتاجها عنه في بريطانيا ، في بعض السنين .

وقد يأتي خلاص السينما القاهرية ، وربمـا ايضا ظفرها بالاستحسان العالمي لقيمتها النوعية ، بواسطة النهضة المسرحية — التي ربما كانت الظاهرة الثقافية الرئيسية للقاهرة في الستينات . فمع ان المسرح وجد في مصر منذ اواخر القرن الماضي لم يكن بالقاهرة في ١٩٥٢ غير مسرحين جديين . اما الآن ففيها مـا لا يقل عن ثماني عشرة فرقة مسرحية واربعة عشر مسرحا للعرض ؛ والعدد في ازدياد . وتتراوح المسرحيات بـين هزليات محلية وترجمات لبيكيت و يونسكو . وهناك اكاديمية للفن المسرحي يتخرج منها الممثلون الجدد، وقد حصلوا كلهم على وعود بالعمل من وزير الثقافة النشيط الدكتور عبد القادر حاتم.

وتتجلى محاولة الدكتور حاتم الواعية لجعل القاهرة مركزا للاشعاع الثقافي على نطاق البلاد باسرها في حقل الموسيقى ، وخاصة في الاغاني. فقد كان العرب على الدوام اسيادا للكلمة — وضحايا لهـا ؛ وكان الشعر فن البادية الاول . ووصلت اغاني احمد شوقي واحمد رامي الى جماهير المستمعين بواسطة صوت امرأة واحدة ، هي ام كلثوم .

يتضمن تشجيع الدكتور حـاتم للفنون الشعبية شيئا هو اقرب الى التنظيم منه الى الرقـابة . فوزارة الارشاد تمثل ، حسب المصطلحات الفرويدية ، « الأنا الاعلى» الذي يشرف على « الهو » ويتحكم فيه . و«الهو» هو لا وعي الشعب ، ذلك اللاوعي الشاسع

الذي لا يمكن ردعه .

ان رقصة هز البطن الشرقية التي عرفت بهـا نوادي القاهرة الليلية (وفيها خمسة وعشرون منها) هي تطور لرقص الغوازي. واللباس الذي ترتديه الراقصات ليس ما اعتدن ارتداءه تراثيا وتقليديا ، بل هو تشويه لما خيّل الى مصممي الازياء الاوربيين انه شرقي ، وربما كان يرجع في تاريخه الى ظهور راقصة الباليه في « عايده » . ويسمح رداء الرقص هذا بعرض البطن العاري ما بين قطعتي نحاس على الصدر وغلالة شفافة . وكان المعجبون ، في عهد فاروق، يلقون نقودا ذهبية صغيرة بين قدمي الراقصة، وكانت هذه القطع الرقيقة جدا كورق المعدن تخاط على الغلالة كحواشٍ ذهبية .

كان البطن العاري اولى ضحـايا « الأنا الاعلى » . فقد نص قرار في عهد الثورة على وجوب تغطية المعدة بشبكة او نسيج حريري رقيق . وقد قـام بعض النظريين بمحاولة (فشلت تماما) لابتداع اسلوب فني « نقي » من هـذه الرقصة المثيرة . ولا تزال رؤية راقصات البطن ممكنة ، لا في نادي الهلتون الليلي ولكن في الاعراس المحـلية حيث تهتز البطون العارية وحيث لا تزال الحركات على مـا كانت عليه دائما . ولا يزال بالامكان استئجار الراقصين الذكور الذين يرتدون اثوابا نسائية ولهم شوارب مثلما لهم جدائل شعر طويلة وحواجب مزججة .

وكما اعطى الغوازي والخولات مكانهم للباليه الشعبي ، كذلك طور قراقوز الى مسرح للعرائس تحت رعاية وزارة الثقافة . وقد استفاد من الانارة المدبرة وجلال المسرح الصغير. في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ كتب صلاح جاهين ، وهو افضل (واسمن) رسـام كاريكاتوري بالقاهرة ، « حمار شهاب الدين » ؛ وهي قصة اسطورية تدور احـداثها في بغداد وقد اعاد قصها بطريقة حـديثة . كانت الانارة بديعة، وحُركت الدمى بشكل جيد . ولكن بالرغم من قيمة جاهين ، لا كرسـام كاريكاتوري فقط بل ايضا كشاعر عامي ، منعت الجهات التي رعت الرواية اية خلاعة او هضامة او عنف . فقتل جو الوقار الحيوية التي هي رأس مـال الفنان المتجول . فان هـذا الفنان ، الذي لا يستفيد من اية مساعدة حكومية ، يتذكر ، او يعرف بالسليقة ، شـعار درنتي كبير فناني العرائس في القرن الماضي : ان ما تفعله العرائس لهو اهم بكثير مما تقوله .

مركز تعليمي رئيسي

كانت القاهرة ، طوال الالف سنة الاخـيرة ، المركز التعليمي الرئيسي في افريقيا . ومع ان هذا التفوق لم يكن يعني كثيرا في بعض الاوقات ، اذ كانت مراكز التعليم في افريقيا قليلة ، فانه اخذ يعني الكثير في المائة سنة الاخيرة .

اتسع الازهر الذي اسسه جوهر الصقلي اتساعا كبيرا في القرون التي تلت تأسيسه . وكما بنيت كليات اكسفورد في الاصل حول الكنائس والمحاريب (ثم اضيفت اليها فيما بعد منازل لاقامة الطلاب) كان الجامع محور الازهر دائما . ولكن بينما نمت اكسفورد (وقد بنيت بعد الازهر) بسرعة بعد القرن السادس عشر ، بدا الازهر في ركود مدة تسعة قرون ، وتغلب التقليد على الحيوية . كان الكثير مما في التقليد جيدا ، ولكن برنامج التدريس كان محدودا ومدرسيا : طرق تجويد القرآن المختلفة ، والحديث النبوي ، وقواعد اللغة ، والفقه الاسلامي .

وكان الطلاب يقسمون الى جماعات حسب جنسياتهم ، لكل جماعة حارتها ورواقها ، وهو المسافة المحددة لها بين الاعمدة . وكانت هذه هي الجماعات الكبرى حتى القرن التاسع عشر : الصعيديون ، المكيون والمدنيون ، السودانيون من دارفور ، الشوام ، الجاويون ، الافغانيون ، المغاربة ، الصوماليون ، الاتراك ، الاكراد ، الهنود ، البغداديون ، النوبيون ، وطلبة واحة الفيوم . وقد لا نجد مؤسسة في العالم حوت او يمكنها ان تحوي هيئة طلابية جامعة مثل هذه . وكان اثر الازهر ، حتى عند ركوده ، كبيرا : فقد كان القادة الدينيون في المجتمعات الاسلامية في كل مكان ينظرون اليه كمصدر للاسلام القويم .

مر تجديد الازهر في مرحلتين : قام بالاولى الشيخ محمد عبده في العقد الاخير من القرن الماضي : فوضع لعلماء الازهر مخصصات منظمة ، ونتيجة لجهوده استحدث نظام الكليات والدوائر . وقامت الثانية في عهد الثورة الحالية ، اذ ادركت حكومة الرئيس عبد الناصر ان خريجي الازهر يتوزعون في كل زاوية من افريقيا وآسيا مجهزين لتعليم الدين والقواعد العربية ليس الا . فشعر الرئيس ومستشاروه انه يجب تمكين خريجي الازهر من قيادة مجتمعاتهم ، لا بواسطة تعليم الدين فحسب ، وانما بتعليم الفنون والانظمة العملية التي تحتاجها المجتمعات النامية . فقد اتضح ان على الازهر ، لخير الاسلام كله ، ان يصبح مؤسسة تقدمية ، لا مؤسسة رجعية . نتيجة لذلك جرى ما يوازي حركة « الكاهن العامل » في الكثلكة . فطلاب الازهر اليوم يتعلمون الهندسة والعلوم ؛ وقبلت الطالبات فيه — وهو امر لم يكن يتصوره احد قبل جيل واحد فقط . وفي ١٩٦٤ اعلنت خطوة جريئة اخرى : وهي مشروع لتأسيس ازهر جديد في بقعة مساحتها خمسمائة فدان في مدينة النصر ، وهي ضاحية الى الشمال من العباسية تنمو بسرعة . وفي القبة سيعطى مائة وخمسون فدانا اخرى لاقامة كلية اسلامية للاناث ترتبط بالازهر .

يعود بعض الفضل في هذا التطور في الازهر ، الذي يضم اربعين الف طالب ابتدائي وثانوي وجامعي ، الى تحدي نظام التعليم العلماني الصرف الموازي له . فبينما استمر قسم من طلاب القاهرة بارتداء القفاطين والاعمة وباتباع منهج مدرسي لم يتغير تقريبا منذ القرون

الوسطى ، درس قسم آخر منهم ، من لابسي الثياب الغربية ، العلوم النووية والاقتصاد السياسي. ولم يكن قد تم اي لقاء بين هذين المجريين .

تستمد المعاهد العليا طلابها من خريجي المدارس الابتدائية والثانوية ، التي اصبح التعليم فيها الآن الزامياً ومجانياً . ونسبة طلاب المدارس الذين يلتحقون بالجامعات اعلى هنا مما هي في بريطانيا المعاصرة ، الا ان هذا لا يعني ان مستوى الجامعات مرتفع مثله في بريطانيا : فالامر ليس كذلك . غير ان احصاءات ١٩٦٣ — ١٩٦٤ تكشف عن الكثير : فقد كان في مدارس القاهرة ٦٠٨ آلاف طالب ، ٢٦٢ الفا منهم اناث . وكان في جامعتي القاهرة وعين شمس ٧٢٩١٣ طالبا ، ١٦ الفا منهم اناث . فتشير هذه الارقام الى توسع كمي ظاهر ، مع انها تدل على ان الفتيات لا زلن اقل نسبيا من الذكور في معاهد القاهرة. والنساء اللواتي يلعبن دورا متزايدا في الحياة المصرية (ومنهن من وصلت الوزارة، كالدكتورة حكمت ابو زيد) كلهن خريجات هذه الجامعات . واحدى مهام الوزيرة المذكورة الآن تنظيم سبعمائة مركز لتحديد النسل في طول الجمهورية وعرضها .

مدينة فرعونية ؟

هذا مقطع سلبي قصير . فالقاهرة ليست مدينة فرعونية . لكنك بالطبع تجد في متحف القاهرة اروع مجموعة من الآثار الفرعونية في العالم، وتستطيع لقاء قرشين مصريين ان تزور اكثر من مائة غرفة تحتوي على مخلفات مدنية عمرها عمر الانسان المتحضر ، وستجد حول محتويات مدفن توت عنخ آمون وامام مومياء رعمسيس الثاني وسيتي الاول سيلاً من الزائرين لا ينقطع من كافة انحاء المعمورة . والقاهريون فخورون بمتحفهم ، وهم يعلمون انه سبب رئيسي في مجيء اربعمائة الف سائح الى مدينتهم كل سنة .

ومع ان القاهرة ليست مدينة فرعونية بل اسلامية ، فانها مركز ممتاز للدراسات الفرعونية . فحتى السائح العابر يجد في قربها من الجيزة وسقارة جاذبا رئيسيا يجذبه اليها . وفي الاهرام يقام عرض ليلي للصوت والضوء يستعيد التاريخ لالف سنة قبل البطالسة . ويستقبل ابو الهول ، الممسوح عنه غباره ، شمس الصباح على جبينه الملكي وهو يحدق بالمدينة . ويمكنك ان تشاهد لفيفا من الاهرامات تمتد الى اقصى النظر باتجاه الجنوب ان وقفت على المقطم في الضواحي الحديثة . واذا جئت محطة القاهرة من الاسكندرية او بور سعيد وجدت خارجها تمثالا جبارا لرعمسيس الثاني ، اكتشف قرب سقارة ، ويقف الآن وحيدا منتصبا ، تقذف النوافير الماء عند قدميه .

ولكن الاثر الرئيسي للفراعنة في القاهرة هو تقليد شعاراتهم واشكالهم في بعض المطاعم وعلى بعض الاقمشة .

الا اني مخطىء ! فهنالك عنصر فرعوني ايجابي : النسوة الشابات ، اللواتي يكحلن عيونهن لتبدو اكبر مما هي (وهي بطبيعتها كبيرة) واللواتي يسرحن شعرهن الاسود بفن غريب يجعله يبدو كالتسريحة الازلية لنفرتيتي الجالسة بجوار زوجها الامير رحوتيب.

من الجوانب السياسية في القاهرة — عاصمة مصر ، وقلب العروبة ، ومركز التكتل الافريقي الاسيوي — الجانب السياسي . فهو، على الاقل ، يقرر جوانب اخرى كثيرة . فصناعة السياحة (يسير المدخول منها جنبا الى جنب مع مدخول قناة السويس) تزدهر بتحسن العلاقات مع العالم الخارجي . ومن الجهة الاخرى ، قد تترك ازمة سياسية ما الفنادق خالية من الزبائن . ويذهب محصول القطن (وهو لا يزال المصدر الاول في البلاد للحصول على العملة الاجنبية) الى الغرب او الى الشرق، حسب مقتضيات الظروف السياسية.

القاهرة عاصمة دولة كانت مركزية الى حد بعيد عبر التاريخ . وللتخفيف من ذلك منح قرار جمهوري المحافظين في الاقاليم صلاحيات واسعة؛ وكان تصنيع حلوان وتطوير اسوان محاولتين لايجاد نقاط ثقل اخرى في مصر غير القاهرة . ومع هذا فليست في العالم كله عاصمة فيها من الجاذبية والاستقطاب ما في القاهرة . وكلمة « مصر » نفسها تعني القاهرة مثلما تعني مصر. والقاهري لا يزال حتى الآن يعتبر مرسى مطروح منفى له (الا في الصيف).

وقد كانت القاهرة ، منذ ١٩٤٧ ، مركز جامعة الدول العربية — مما يعطيها بعدا جديدا . ويبدو ان التعبير المصري الشائع بان القاهرة هي قلب العروبة ، صحيح : فهذه المدينة على النيل تستقطب عواطف الرجال والنساء في مراكش والكويت كما تستقطبها في العراق واليمن .

يضاف الى ذلك بعد آخر، هو وجود افريقيين في القاهرة، جعلوا منها قاعدة لنضالهم، او عادوا اليها زائرين كرؤساء دول مستقلة . ان في الزمالك حيا كاملا يغلب عليه اللون الاسود، ويقطنه افريقيون وطنيون يعملون في السياسة؛ بعض هؤلاء يشك بالدولة المضيفة، وبعض آخر ينكر جميل مساعداتها؛ ولكنهم جميعا لا يجدون غنى عنها، ويعتبرون القاهرة المدينة الرئيسية في قارة في غليان وثوران .

ان القاهرة اكثر من سوق للسلع الغريبة النادرة ، واكثر من متحف . انها ساحة تتعارك فيها بعض القضايا الجوهرية في عصرنا ، عراكا مبالغا فيه احيانا ، لكنه حار غيور دائما . واذا كان في ذلك بعض الخطر، فان فيه ايضا تلهف الاعصاب، الذي يشكل الفرق لدى زائر القاهرة بين الرحلة السياحية وبين الاختبار والتجربة .